طالب، الشاعر قبل وبعد أن يقتل عماد النفوري والد سلافة ورمز الاقطاع في الرواية، ان هـذا التشديد على الصيغة الواخدة في الرواية بأسرها يحمل في الواقع معنيين :

أ — ضرورة جعل العامل الثقافي — السياسي المتمثل بجميل الفران جزءا من العمل الروائي ، مع احتفاظه بالقدرة على الحركة وعلى حمل وجهة نظر الكاتب نفسه في أغلب الاحيان .

ب — افساح المجال امام الشخصيات الاخرى بالتعبير عن نفسها بواسطة الحوار ، الذي يصل الى حدود الكشف عن نوازع الشخصيات الرئيسية في الرواية ، ويحل دائما مكان الحدث الخارجي الذي يجري على اطـراف علاقة جميـل الفران بالعائلة الاقطاعية التي نشهد تفسخها وانهيارها في نهاية الرواية .

ضمن هاتين الوجهتين يتحرك عاملان اساسيان من عوامل التغيير الذي يصفع المجتمع العراقي في اعقاب هزيمة ١٩٤٨ .

العامل الاول هو **فلسطين** ، بكل ما تمثله من وقع الهزيمة علـى مجتمع لم يتخلص بعد مـن السيطرة الاستعمارية . فلسطين حاضرة هنا في ذكرياتها ، ودلالاتها على استحالة المصالحة مع الغرب الامبريالي « لقد سرقوا مسيحنا ورفسونا في اسناننا » كما يقول جميـل الفران للكاهن . وتتحول فلسطين الى رمز للهزيمة العربية الشاملة. هنا لا يأخذ هذا الرمز مدلولا سياسيا فقط ، بل يتحول الى رمز اجتماعي . ضرورة التخلص من العادات والتقاليـد التي تمنـع مسيرة التقـدم الاجتماعية . لذلك تأتي ليلى — خطيبة جميل في فلسطين — من بين انقـاض بيتها الذي هدمـه الصهاينة ، تخرج من قبرهـا لتتحول الى رمـز اجتماعي كامل : « تلك الليلة حلمت انني رأيت ليلى مرتدية عباءة سوداء كبنـات بغداد ، كنت اتعارك معها يائسا طوال الليل . حاولت ان انزع عباءتها ، ولكنها رفضت ان تنتزع . حاولت المرة تلو المرة الا ان الثوب الاسـود تشبث بجسدها بعناد . فضحكت . ضحكت كما كان من دأبها دائما ان تضحك قبل ان يضع لغم الديناميت اليهودي حدا لضحكها وضحكي » . يتحرك هذا العامل في خلفية الرواية ، بوصفه رمزا صارخا على ضرورة التغيير . لكن جبرا ، لا يقحمه في كل شيء ، بل يترك الاحداث تتراكم لتؤدي بنفسها الى العودة الى هذا العامل .

العامل الثاني هو **الثقافة** . الثقافة هنا بمعناها الغربي الحديث . لكنها تتحول الى صيغة العلاقات الاجتماعية . فقدرة جميل الفران على ترك حياة النزوح مرهونة بكونه درس دراسـة عالية في انكلترة . وسيصبح استاذا في احدى كليات بغداد. وعلاقاته الاجتماعية في بغداد تتوزع في اتجاهين : اتجاه اساسي يتمثل في العلاقة مع سلمى الربيضي وعالمها الذي سمح له بالوصول الى سلافة بصفته استاذا يعطيها دروسا خصوصية. هنا تبدأ العلاقة بالانعكاس الاجتماعي للثقافة ، سلمى مثقفة ، وسلافة تدرس الانكليزية . هذا الانعكاس هو الذي يلعب دور المفجر الرئيسي للعلاقات الاجتماعية . فالمثال الثقافي العقلانـي يفسخ العلاقات داخل الطبقة الاقطاعية ويؤشر الى انهيارها . كما انه يشير الى امكانية اخـرى للنظر الى العلاقـات الاجتماعية ، وللتعامل مع الزمن . ففي الحوار الذي يجريه جميل الفران مع توفيق نجل احد زعماء العشائر نكتشف الاصرار على التعامل مع الزمن بوصفه تحركا سريعا . والرفض القاطع لمفهـوم الزمن السكوني البدائي . واتجاه ثانوي ، يمثل العلاقات التي يقيمها جميل الفران مع شلة مـن المثقفين في بغداد . هنا نكتشف ضرورة التغيير من خلال التخبط امام اكتشاف طرق هذا التغيير . وهنا يأتي المثال الثقافي العقلاني ليتحد مع ضرورة اجتماعية ملحة ، يمثلها تحرك الطلاب ، ومحاولة المثقفين الاندماج بالحركـة الاجتماعية بطـرائق وأساليب مختلفة . وحين نصل الى حرقة الفشل ويكتشف المثقف الانتحار فانه يرتد الى الاقطاعي ليقتله عوض ان يستسلم .

يتوحد هذان العاملان بشكل رمزي في شخصية جميل الفران . فهو الممثل الشرعي الوحيد للهزيمة بوجهها الايجابي . وهو المثقف الغربي الوحيد الذي يجمع احتراف العمل الثقافي بتمثل كامل للثقافة الغربية . لذلك يتزايد دوره كلما توغلت الاحداث في الوصول الى لحظة الانفجار الاجتماعي . فهو حين يصبح الملجأ الوحيد لسلافة بعدمـا رفضت مشروع تزويجها بالقوة وتمردت عليه يتساءل « ما هي علاقاتي بهذه الميلودراما المؤلمة » لكن هذا التساؤل نفسه يقوده الى مزيد من الالتزام بمصير